التبكير بالغد

أمسك بيدى وجرنى وراءه، أخذ يكيل النصائح وهو يجرنى بين الأروقة، تعبت ونهجت ولهثت توقفت بغتة، وقد سحبت يدي.. بلغه الأمر : عم فاروق، توقف والتفت إلى مستفهما : ايه يا ولد، يا عم فاروق ميصحكش أخش على الراجل، وأنا بنهج وعرقان، عندك حق تعال نمشى بهدوء الدنيا مش حتطير، كنا بنقول إيه آه... اللواء طوسون مدير الأمن بالشركة الفرنسية اللى بتنفذ خط المترو هو فى عزه لسه إنما طلع معاش مبكر من الداخلية باختصار سعى عشان تحل محل الوالد المرحوم فى نفس وظيفته أنا معنديش شهادة تجنيد لسه، اطمئن هو حيحل كل المشكلات فى الورق، حتى الباب، طرقه فى رهبة ورفق أدخلنى بدفعة حازما يده، لثوان امام المكتب... حتى رفع إلى اللواء عينيه من تحت زجاج شفاف للنظر، فى لحظات استعرض وتحسس ما تحت الجلد، وفى العروق، والنظرات، اسمع يا بنى ان كان عليا موظفكش بثلاثة جنيه لكن لجل أبوك المرحوم الطيب، أنا حوظفك بأعلى أجر أساسى لفرد أمن فى الشركة، ومش عايز حد من زمايلك يعرف.. أنت جبت كام فى الدبلوم، أنا من الأوائل، وكان ممكن أكمل فى هندسة حلوان، لانت لهجته : خسارة يا محمد مسئوليتك كبيرة خمس أخوات والوالدة، يا ترى حتكون

جدع زى ابوك، كان تساؤلا حادا مزعجا لم أرد عليه إلا بكلمة : إن شاء الله كانت كلمته حنشوف علامة على انتهاء المقابلة، تركته أنه نفس الحديث الكل يتوقع منى أن أكون قدر ما إلقى إلى من أعباء وأنا تائه بين الأشجار العملاقة أين ذلك الرجل فى داخلي، أنهم ينتظرون منى أفعالا كبيرة، ارتسمت ليلة العزاء فى البلد بالمنيا الأعمام الأحد عشر بزوجاتهم قالوا : انتى صغيرة واولادك صغار أكبرهم محمد لم يتم الثامنة عشرة اختارى أيا منا ليكون زوجا لك ليربى الأولاد، لمت الأفراخ الصغيرة وتشبثت بى من رقبتى وقالت : بعد أبو محمد ليس لى زوج أنا تزوجت أولادي، أدركت وقتها أن الأحلام ضاعت وأن على الف الف مهمة، على اطعام الجوعي، وحمل الماء من النبع وحتي... وأى شيء سوى العمل لقد ضاعت فرصتى الأولى فى أن أكون مهندسا حين إلتحقت بالثانوى الصناعي، وجاءت صحوة ما وتفوقت كان فخورا بى فى زيارته الأخيرة للبلد اعطانى وعدا... اعطانى ثمن أربعة أطقم من الملابس... كيف له أن يفعل... لقد مناني... آه من قال ان الأحلام لا تموت حين يموت العائل، تموت أشياء لتحيا أشياء على واقع جديد، ولابد من التخلى عن الأحلام، فرد من أمن الشركة، أعمل أثنتى عشرة ساعة أقل من العادى أكل، أقل من العادى إلبس وأنام استنفد أيامى وأجر غدى ورائي، لا استبقي، ولو للحظات بين أظافرى مخافة أن اتطلع إليهم فأتذكر كم أشقى لجمعه، وربما أضن بها، أنها مصاريف الأسرة فى البلد، فأنا بديل الأب الآن فى

التاسعة عشرة والعشرين والثانية والعشرين وهلم جرا، فى الإجازات اناقش أحلامهم هم.... وأنا البس زى ضابط موقع تحت الأرض يحرس أعمال ومعدات الشركة، يروى من الأعاجيب أن حفارا اختفي، وهم يعملون فى الخط الأول... حفار عملاق يطيب لعم فاروق روايته أره، وهو يتعجب.. يشغلنى همي، فالدرب فى اتجاه واحد، دروس الصغيرة وامتحانات الكبير، طول الخط بين شبرا والجيزة الاف مواقع العمل الصغيرة والكبيرة.. عمل قاس فى الصباح بعد سهر الليل البارد تحت الأرض، اتفقد فى دوريات مهمات عمل اليوم.. مسامير ربط، معدات لحام، أوناش بقطع غيار عملاقة الاف المنافذ المفتوحة المعرضة للسرقة فى أى ساعة.. قسوة العمل تحت الأرض... تم دفنه سريعا جدا.. جاء من القاهرة فى عربة إيصال خاصة قيل إلينا أنه مات... مات من الشقاء... أمضى حياته الوظيفية ملازما للشركة الفرنسية التى تبنى الخط الأول للمترو ثم ما أن انتهت حتى تبعها مهرولا إلى الخط الثاني... مقسوم لى أن أحل محله.. أكان نذرا ان نعمل فى الأرض، بل تحت الأرض لجيلين متتاليين فى حفر... وغبار الحفار العملاق... يشق طريقه تحت القاهرة ليلا ونهارا... هل يا ترى سوف اعيش لأرى الخط الثالث... إذ ربما لحقه أحد أولادي.. أو آه... أنا لم أتزوج بعد ربما احد أخوتى الأصغر هذا التبرم لم يمنعنى من الحفاظ على مورد الرزق الوحيد المتاح لأسرة كبيرة العدد فى الصعيد...وهناك دائما أغراء الكسب الحرام، الاف القطع الملقاة بين أظافر الأوناش

والحفارات... صلب من أجود الأنواع، تحول صاحبه الحرامى إلى مرحلة الاكتفاء، من قال ان الحرام ينفع، كيف حال ابننا محمد اسمعها من وقت لأخر من اللواء طوسون يسأل عم فاروق رئيس وردية الليل كان يرد : عال العال يا باشا برعايتك ليه... خذ اعطه هذا قل له عيدية الأولاد من عمهم... كانت حوافز وبدلات الشركة جيدة وتسعف الالتزامات الطارئة.. لكنها لم تمكنى قط من إدخار عرق يوم "يادوب عايش" بلا أحلام فى غد، هباته لى تسعدنى نعم كلماته فى السؤال عنى تسعدنى أكثر نعم حتى لو من وراء حجاب الرئيس والمرءوس انه يتابعنى عن بعد، شيء ما بين عم فاروق واللواء يخصنى أو يخص والدى الراحل شيء يجعله يثق فى ويغدق على أو أستحق هذه الحوافز والبدلات كلا ولا كنت أستطيع العيش وأهلى بالراتب الأساسي، حتى ما صرفته الشركة لوالدى كمعاش ومكافأة، ضاع فى بالوعة الالتزامات لأطفال دون عائل لهم أو معين، الدنيا تلاه.. الن تقول لى يا عم فاروق لماذا كانت لوالدى تلك المكانة لدى اللواء... ضحك قال: أظنك كبرت الآن سنوات الخبرة حفرت على ثنايا وجهك آثارا... أنا من زمن صعب... كل الأجداد كذلك ميغركش منظري... أنا جد قديم، وجندى قديم... ياما خندقت فى الحرب على شط القنال وحفرت الرمل بأيدي، وشلت الظلط بأسناني... لكن العمر والموت مخدنيش... أبوك كان زيي... ياما خدنا كاربيج لهب وقنابل وردمنا خنادق بأموات مرحومين شهدا عشان كدا ابوك اتجوز كبير والموت مطالوش إلا... تمتمت

الله يرحمه..، يا محمد كتير شفت فى عينيك ضغينة للدنيا وللحياة وللأب اللى مات وشيلك المسئولية بدرى اتسعت حدقتا عينى باندهاش.... إلى هذا الحد كان يظهر عليَّ، أيوه كان باين عليك، اللوا قال لى كتير فى الأول، مش حيستحمل، ربك والحق هو أنا كنت بقول زيه... الشغل هنا فحت الفحت... فين رجالة زمان.. قام يستأنف دور المرور على الرجالة والمنافذ... كانوا فى المدرسة الأعدادية يحدثوننا أن أجدادنا هم من فحتوا القناة... كانت الشركة الفرنسية.... تحضرهم من الأرياف هناك ترعة حذا الشام ينبغى شق الرمل والصخر والجبل حتى يمر الماء... رغم المشقة والعذاب حفروها... رغم الصعاب، بلا لوادر حفر، ولا شوكات عملاقة حفروها..، من حرك جبل التراب المتخلف عن أعمال حفر الأمس..، عبر مترجم سألوا كل العمال... قولوا ليس خطأ من حركه... سنكافئ من حركه بأكبر أجر... هذا عمل خارق لعشرين عاملا فى اليوم... لا يمكن ألا تكونوا أنتم من حركه... لا يمكن أن تحركه الأشباح، حقا اذن وفرتم أجرة نقل تراب أعمال حفر أمس من الشفاط إلى الخارج؟. حسبت الأيام فوجدتها أعواما مرت، عنى لم توجه عبارة أو ملاحظة لكن لكل شيء نهايته المحتومة أفراد الأمن حولى تتطاير، وأنا باق حتى آخر يوم فى مشروع "شبرا ـ الجيزة".. ابقانى طوسون بجواره حتى الآخر... كان عم فاروق قد فارق الدنيا مثل هذه الأيام، ولغير سبب لازمنى سؤال... كان لابد من أجابته.. رغم أنها معروفة... كان لابد لى ان اسمعها منه أو قد نجحت؟! أو

قد صمدت لتجربة "موت الاب" "حمل امانة أسرة حتى الشط"... كان المرحوم فاروق يحمل عنه عبء الإجابة؟! طرقت الباب عليه، وقد أفرغ ما بيده من أعمال.. آه محمد تعال ادخل : أنا كمان حسلم عهدتي، وربما لن أعمل مدير أمن "الخط الثالث"، فاجأنى بغته : أنت من حرك جبل تراب الشفاط للخارج منذ العام، لم أستطع الانكار، كان يمكن أن تأخذ أجرا كبيرا على نقلك كل هذا الكم، لقد أخذت كفايتي، لقد علمت أننى أستطيع، جمده رد الصمت لبرهة : آه الآن فهمت، لم يكن يقف لأحد لكنه فعلها، لانت قسمات وجهه فجأة وهو يصافحنى بحرارة الدماء المتدفقة من عطاء قلبه، مازلت أشعر بحرارة يده.